

رد على المفكر السوري عماد فوزي شعبي حول «الصراع على السلطة في سوريا»

الدكتور نيقولاوس فان دام

القاهرة في ٣ يوليو (تموز) ١٩٩٥

السيد رئيس تحرير جريدة الديار

لقد اطلعت باهتمام على مقال السيد عماد فوزي شعبي في جريدة الديار يوم الاحد الموافق ١١ يونيو (حزيران) ١٩٩٥ رداً على ما نشرته لي جريدة السفير بتاريخ ٢٤ مايو (ايار) ١٩٩٥ والذي كان بدوره رداً على مقاله في جريدة السفير بتاريخ ٢٨ ابريل (نيسان) ١٩٩٥ حول كتابي «الصراع على السلطة في سوريا: الطائفية والاقليمية والعشائرية في السياسة (١٩٦١ - ١٩٩٤)» الذي قامت بنشره مكتبة مدبولي في القاهرة في يناير (كانون الثاني) الماضي والذي ظهرت منه الطبعة الثانية المزينة المنقحة في يونيو (حزيران) الماضي.

ولم يدهشني عدم استساغة السيد شعبي لمقالي الذي كشف عن بعض اوجه التضارب والنقد الذي لا اساس له من الصحة في مقاله، انما ما يدهشني حقاً هو هذا الاسلوب اللاذع الممتعض الذي اتسم به مقاله في جريدة «الديار» والذي يحتوي على المزيد من الادعاءات الجائرة التي لا اساس لها من الصحة، التي تفوق ما جاء في مقاله الاول.

ولو ان الامر توقف عند المستوى الاكاديمي المتواضع لهذا المقال الذي يصف كتابي «بالخبث» ويانه «اخطر كتاب في الطائفية السياسية» لكنت تجاهلته واعرضت عن الرد ولكن احتراماً لقراء جريدة الديار اشعر بضرورة الرد على كل ذلك.

اود اولاً ان اؤكد ان ردي هذا يأتي من منطلق شغفي تماماً مثلما كان الحال لدى كتابتي لهذا العمل الذي ذكر في مقدمته «ان وجهات النظر المطروحة في هذا الكتاب خاصة بالمؤلف ولا تمثل تلك الخاصة وزارة الخارجية الهولندية».

انا لا ادعي انني قمت بكتابة دراسة عامة عن سوريا بل هي رسالة علمية monograph تغطي بعض الواجه الرئيسية وفي مقدمتها الطائفية والاقليمية والعشائرية في الصراع على السلطة السياسية كما هو وارد بالعنوان وفي مقدمة كتابي اذكر الآتي:

ان مما لا يمكن انكاره ان الولاءات الطائفية والاقليمية والعشائرية قد لعبت دوراً في تاريخ سوريا السياسي والاجتماعي والاقتصادي في القرن العشرين، ولكن الآراء تختلف كثيراً حول مدى اهمية هذا الدور، ويميل العديد من الكتاب والمؤلفين الغربيين وغير السوريين الى تعليق اهمية كبيرة على هذا الدور معتقدين ان هذه العوامل ما زالت ذات اهمية حتى بعد الاستقلال.

ومن ناحية اخرى فان العديد من الكتاب العرب القوميين الاشتراكيين والسياسيين السوريين، يرفضون تماماً وجهة النظر هذه ويعارضونها علانية، وخاصة اذا كان الامر يتعلق بنظام يحظى بدعمهم الا ان نفس اولئك الكتاب والسياسيين يعلقون اهمية كبيرة على الطائفية والاقليمية والعشائرية عندما تتعلق القضية المطروحة بنشاطات انظمة معادية او مخلوعة او بمعارضين سياسيين داخل نظام حكمهم.

ان جميع هذه العوامل يمكن بطبيعة الحال ان يبالغ فيها او يستهان بها، وفقاً للموقف المتخذ فالحقيقة تكمن هناك في مكان ما ولا يمكن ان تنكشف الا بالفحص الدقيق للحقائق المادية على اوسع نطاق ممكن.

ان هدفنا هو التحقق من مدى الدور الذي تلعبه الولاءات الانحرافية والالتزامات مثل الطائفية والاقليمية والعشائرية في الصراع على السلطة السياسية في سوريا والاسلوب الذي اتبعته.

وفي خاتمة كتابي اطرح بعض الملاحظات حتى اضع نتائج عملي في سياق اوسع بحيث استطيع المقارنة بين دور الطائفية والاقليمية والعشائرية وعوامل اخرى.

رد على المفكر السياسي العربي السوري... (تتمة)

(تتمة الصفحة ١)

انا لا اسعى كما يدعي السيد شعبي الى اثاره الطائفية والانشقاق، بل بالعكس فانا اعتقد ان اجراء مناقشة علنية وموضوعية وحوار حول هذا الموضوع الحساس هما افضل الطرق لحله، وليس بتجاهله تعمداً ان تجاهل الموضوعات الهامة قد يساعد بطريق غير مباشر على اثاره العوامل والقوى المفترض كبحها عن طريق تجاهلها لذلك، فانا لا اوافق السيد شعبي على الاطلاق حول فرضيته اننا في سوريا عندما لا نسمح لانفسنا ولا نسمح لنا الدولة بتناول الامور الطائفية لا يكون الامر كما يدعي (فان دام) لانها تلعب دوراً هاماً انما لاننا لا نريدها ان تلعب اي دور على الاطلاق.

وفيما يلي ردي على النقاط التي يطرحها السيد شعبي والتي في رأبي ليست فقط خاطئة، بل ايضاً خارجة عن السياق في بعض الاحيان.

١- اذكر في ص ١٣ (الطبعة الثانية ص ١٦) ان ٨٢.٥٪ من سكان سوريا يتحدثون العربية (اللغة الام) الا ان السيد شعبي يجادل ان هذا الامر غير صحيح لانه «لا يعرف احد في سوريا لا يتكلم العربية»، ويبدو ان السيد شعبي لم يسمع قط عن الاكراد، والشراكسة والشيشان، والتركمان، والارمن، والاشوريين، وهم بعض الاقليات التي تسكن سوريا ولا تتحدث اللغة العربية كلغة ام، وقد يكون بعضهم قد تعرب منذ اوائل الستينات، وهي الفترة التي تشير اليها بياناتي، وكما كتب العماد مصطفى طلاس في «مرآة حياتي» - العقد الاول ص ٣٢٤ بأنه صار لدينا في سوريا شعراء ارمن، من فطاحل اللغة العربية الفصحى، الا ان معظمهم احتفظوا بلغتهم الاصلية غير العربية حتى يومنا هذا ولبت السيد شعبي يسعى يوماً لزيارة مدينة حلب الشهباء ومنطقة الجزيرة في شمال سوريا والاستماع للغات المستخدمة هناك، وقد يفيد الاطلاع على تقرير محمد طالب هلال، رئيس الشعبة السياسية سابقاً بالحسكة، تحت عنوان «دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية الاجتماعية السياسية» الذي كتب في منتصف الستينات والذي يتناول قطاع السكان الكردي بتوسع، بجانب الاقليات الأخرى غير العربية.

٢- يسألني السيد شعبي لماذا لم تصبح غالبية المنتسبين لحزب البعث من البرجوازية الدمشقية نسبة لصالح الدين البيطار، او من الارثوذكس نسبة لميشيل علفق؟ ورغم انني شرحت هذا الامر باسهاب في كتابي (الا انني ساكرر حجتين) انه لامر مفروغ منه ان الابدولوجية الاشتراكية لحزب البعث لا تسترعي اهتمام البرجوازية ثانياً كان اوائل تلاميذ علفق وبيطار اساساً من ريف سوريا الفقير نسبياً، بالتالي انتشر تنظيم حزب البعث الى مناطقهم الريفية عبر قنوات اجتماعية تقليدية.

٣- اشير الى انه خلال ثورة ٨ مارس (اذار) ١٩٦٣ كان عدد الاعضاء العاملين بحزب البعث فقط حوالي ٤٠٠ (ص ٣٥ الطبعة الثانية ص ٤) الا ان السيد شعبي يعلق بيان هذا غير صحيح، دون اعطاء العدد البديل «الصحيح».

ان تقديراتي غير مخترعة، بل تستند (كما هو مبين بالحاشية) الى مقابلة جرت بين بول بالطا واحد الشخصيات البيئية البارزة سابقاً وهو الدكتور جمال الاتاسي، ونشرت بجريدة «لوموند» في ٢٤ مارس (اذار) ١٩٧١ وفي مقابلة جرت بيني شخصياً وبين الدكتور منيف الرزاز، الامين العام للقيادة القومية لحزب البعث سابقاً في ١٩٧٢ ذكر الاخير عدداً يتراوح ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ لماذا لا يقدم لنا السيد شعبي عدداً بدلاً من ذكر مصادره؟ ان ادعاءاته المجانية عن ما يسمى بـ «اخطاء» لا تساعد احداً وتقع دون المستويات الدولية للممارسات الاكاديمية. فلا يستطيع احد ان يصف شيئاً بأنه خطأ في سياق ما نعتبره مناقشات اكايدمية، دون ان يقدم حقائق بديلة او يغتفر عدم صحة البيانات المطروحة وهل هناك سرفي عدد اعضاء الحزب العاملين في ٨ مارس (اذار) ١٩٦٣ بعد مرور اكثر من ٣٢ عاماً؟ انا مدرك بالطبع كما هو وارد بكتابي وبعض مقالاتي بوجود العديد من البعثيين النشيطين الآخرين في سوريا، في ذلك الوقت، بمن فيهم «القطريون» الذين اسسوا تنظيمياً بدلاً بعد المؤتمر القومي الخامس لحزب البعث المنعقد في حمص في مايو (ايار) ١٩٦٢، ان الدعوة لهذا المؤتمر لم توجه لهؤلاء «القطريين» شأنهم شأن البعثيين السوريين الآخرين الذين كانوا خارج القيادة القومية، وبالتالي قاموا باعلان تاسيس قيادة قطرية خاصة بهم، ولم يعد انضمام هؤلاء البعثيين مع حزب البعث الرسمي «التنظيم الام» الا بعد ثورة ٨ مارس (اذار) لذلك لم يكن من الممكن اعتبارهم اعضاء عاملين بشكل رسمي حتى هذا التاريخ بغض النظر عن اهمية دورهم في الثورة وما تلاها.

٤- في ص ١١٨ (الطبعة الثانية ص ١٥٠) اشير الى ان تمثيل العسكريين في المؤتمر القطري السابع ١٩٨٠ كان اكثر من ٣٠٪ من اجمالي اعضاء المؤتمر، ويرى السيد شعبي انني اعزو هذه النسبة الى عدد الضباط الذين اذكر بعضهم بالاسم، وانني «اخضع» في الارقام، في الواقع انا استند فقط الى التقرير التنظيمي للمؤتمر القطري السابع، حيث يذكر في المناضل (العدد ١٢٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ ص ٢٩ - ٣٨) انه من بين ٥١٨ عضواً عاملاً اصلاً كان ١٦٠ (اي اكثر من ٣٠٪) يمثلون الجيش والقوات المسلحة، وان كنت قد اخطأت في وصف احد الأشخاص بأنه من العسكريين (اي جميل الأسد الذي حضر المؤتمر كعضو اصيل ايضاً) كيف اتهم بالخداع في الارقام المنشورة جلياً في المناضل؟

٥- في ص ١٢٢ الطبعة الثانية ص ١٥٥ اصل الى استنتاج شخصي يصفه السيد شعبي بالآتي: «تبلغ اللعبة حداً من الفضائحية لا يمكن ان يسكت عنها عقل قارئ يحترم ذاته واستنتاجي (بالشكل المخلص جداً كما اورده السيد شعبي) هو ان «سوريا لا تزال في منتصف التسعينات تبدو بشكل متناقض ومأساوي ابعد ما تكون منذ استقلالها عن التصور.. لمجتمع علماني...» واشير في احدى الحواشي على عمليين يحتويان على مناقشة تدور حول هذه القضية في ١٩٧٩ و ١٩٨٠ ويجادل السيد شعبي بأنه لا يمكنني الاقتباس من اعمال نشرت عام ١٩٧٩ و ١٩٨٠ للوصول الى استنتاجات حول وضع يفترض انه قائم في منتصف التسعينات، ويبدو ان السيد شعبي لا يالف الممارسة الاكاديمية الشائعة التي يشار فيها الى اعمال اخرى جديرة بالاطلاع كمزيد من الاسناد حول الموضوع قيد المناقشة، وهنا يستخدم لفظ «قارن» وفي حالة عدم استخدام كلمة «قارن» يعني هذا ان الكاتب يعتمد على ما يستشهد به كسند مباشر لاقواله.

لقد وردت استنتاجاتي سالفة الذكر في بادئ الامر في الطبعتين الانكليزيتين لكتابي الصادرين في ١٩٧٩ و١٩٨٠ وحيث انني اعتقد ان الاستنتاج ما زال قابلاً للتطبيق في منتصف التسعينات لذلك قمت بتكراره، مع تعديل الفترة المذكورة تبعاً.

٦- في ص ١٣٨ (الطبعة الثانية ص ١٧٥) اذكر ان عدد (احد تشكيلات القوات المسلحة السورية في ١٩٨٢ قد بلغ ٥٥٠٠٠ ومرة اخرى يرى السيد شعبي انها «لعبة الارقام» غير ان كل ما فعله هنا هو الاستشهاد بعمل باتريك سيل الأسد «الصراع على الشرق الاوسط» ص ٤٢٦ من الطبعة الانكليزية الاصلية فلست ادري كيف يمكن ان اتهم بالتلاعب على الاحصائيات؟

٧- ويشير السيد شعبي الي انني لم اخطيء فقط عندما ذكرت في ص ١٢٧ (الطبعة الثانية ص ١٦١) انه في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١ قام الاخوان المسلمون بنسف مجمع مخابرات بحى الازبكية بل يتهمني بطريقة غير مقبولة بانني احاول التغطية على هذه الجريمة البشعة التي نالت الارباء بالحديث عن اصابة المارة، وفي الحقيقة ان لا مجمع مخابرات، ولا وجود حتى لمنبر امن واحد في اليمن الذي اصيب بالتفجير، انني اقدر شعور السيد شعبي تجاه هذه الحادثة، حيث انه كاد ان يكون احد المصابين في هذا

الهجوم الغادر، ولكني لم افعل سوى الاعتماد على كتاب باتريك سيل «الاسد: الصراع على الشرق الاوسط» (ص ٣٣١) كما يتضح للسيد شعبي بالرجوع الى الحاشية الخاصة بهذا الجزء والتي يبدو انه فضل ان يتجاهلها عن عمد لست ادري كيف يستطيع السيد شعبي ان يوجه لي مثل هذه الاتهامات التي لا اساس لها.

٨- ويشير السيد شعبي الي ما ذكرته (ص ١٢٨ الطبعة الثانية ص ١٦٢) عن اعادة نشر كتب لصالح «فئة معينة» وتوزيعها بالكتبات السورية، وهو ما ورد باحدى الحواشي عن اعمال منير الشريف ومحمد امين غالب الطويل ويتهمني السيد شعبي بانني اسوق هذه الملاحظات بما يخدم تحليلي ما قبل القومي (ويقصد به الطائفي والاقليمي والعشائري) كما يدعي انني اشترت كتاب منير الشريف (المسلمون العلويين) من احدي بسطات بيسروت ورأيت ان انسب طبع الكتاب لخطة سورية والقول انه يوزع في مكتبات دمشق، خدمة لغرضي وتحليلي، وفي الواقع لقد اشترت نسختي هذه من مكتبة جدبيرة بالاحترام في دمشق في اوائل السبعينات كما انني لا افهم كيف يمكن للاماكن التي اشترى منها كتيبي ان تؤثر على سياق تحليلي.

٩- في ص ١٤٣ (الطبعة الثانية ص ١٨٢) اقدم تحليلاً احصائياً استناداً الى التقرير التنظيمي للمؤتمر القطري الثامن في ١٩٨٥ واخلص الى ان الارقام الواردة به تؤكد ما توصلت اليه سابقاً الا وهو ان عضوية حزب البعث كانت اقل انتشاراً في المدن الكبرى كدمشق وحلب واكثر انتشاراً في المناطق الريفية، ويرى السيد شعبي ان الجداول الواردة بكتابي (ص ١٨٣ الطبعة الثانية ص ٢٣٥) تشير الى عكس ذلك، حث ان النسبة المثوية لمدينة دمشق تصل الى ٩,٥٤٪ وتلك لريفها الى ٦,٧٧٪ بينما تمثل النسبة لحلب (١١,٢٦٪) والمقصود هنا كل مدينة حلب بما فيها المدينة والمناطق الريفية) اعلى النسب بالمقارنة بجميع فروع الحزب الأخرى، ويرى السيد شعبي انني اتلاعب بالارقام مرة اخرى، لانني احسب النسب المثوية بمقارنة عدد اعضاء الحزب بعدد سكان المنطقة قيد النظر فيقول مرة اخرى عندما لا تستجيب الارقام المجردة للتحليل المرسوم سلفاً يخترع فان دام معاملاته الجديدة.

ورد فعلي لذلك هو الاتي لو انني اردت فقط ان استخدم ارقاماً تتفق مع نظرياتي، ما كنت ساسوق الارقام الخاصة بدمشق وحلب التي يشير اليها السيد شعبي، ففي الواقع لقد ساق السيد شعبي هذه الارقام من عامود قمت باضافته للجداول ماخوذاً من التقرير التنظيمي عام ١٩٨٥ وذلك لاجراء مقارنة افضل بين العواميد المختلفة وطرق الحساب، وهذا العامود الذي يستشهد به السيد شعبي يعطي عدد اعضاء الحزب في منطقة ما بالمقارنة مع العدد الكلي لاعضاء الحزب في سوريا، ان السيد شعبي يناقض نفسه عندما يقول انني قمت بتلفيق احصائيات حتى اناقض ما اسوقه من حجج.

ان اعطاء صورة واقعية للقوة العددية لتنظيم الحزب في منطقة ما طبقاً لتحليلي يتطلب مقارنة عدد اعضاء الحزب باجمالي السكان، والاسيضعب مقارنة المناطق المختلفة.

١٠- ويرى السيد شعبي ان كتابي يعتمد على مجموعة من المراجع الملتبسة كمرجع كتاب (حوار حول سوريا) لكاظم باسم حركي هو محمد صادق، ويترسل السيد شعبي في نقده الذي لا اساس له قائلاً الغريب في ان السيد فان دام يريد ان يقنع ويخدع قارئه بان الكتاب موثوق به من حيث يذكر (ص ٩١ الطبعة الثانية ص ١١٦) ان كتاب حوار حول سوريا لمحمود صادق صادر عن دار عكاظ بلندن.. والواقع ان الكتاب صادر بدون ذكر لاي دار او مكان للطباعة ولكن معلوماته (الهامة) لصالح خلفية للكتاب تقتضي ان يخترع الكاتب داراً لكتابه الطائفي. انا لا الفق شيئاً بل بالعكس فالسيد شعبي ينهي بدون وجه حق ان الكتاب لا يذكر تاريخ او دار نشر الا ان القارئ يجد الاتي في ص ٢ من الكتاب الطبعة الاولى ١٩٩٣ الناشر دار عكاظ لندن.

والغرب من ذلك ان الهجوم الذي شنه السيد شعبي ضدي لاستخدامي كتاباً لا يستسيغه هو انما ادى الى الترويج لكتاب السيد محمود صادق الممنوع تداوله في سوريا، فقبل نشر مقاله هذا ما كاد احد يسمع عن هذا الكتاب في سوريا، اما الان والفضل للسيد شعبي فربما يحظى كتاب السيد محمود صادق بالقاعدة الكبيرة من القراء التي كان يرغبها المؤلف.

لقد استعنت اساساً بكتاب السيد صادق الممتع كمرجع للمزيد من التحاليل الاضافية او البديلة وانا لا اعتمد عليه كما يقول السيد شعبي غير انني لم اناجح في التحقق من مصادره، او حتى العثور على دار عكاظ التي قد تكون هي ايضا اسماً حركياً، كما انني لا ارى كيف يمكن لكتاب عربي تنشره دار مغمورة في لندن ان يكون جديراً بالثقة اكثر من كتاب منشور في العالم العربي.

١١- ويتهمني السيد شعبي بانني انقل عن باتريك سيل (ص ١٣٨ الطبعة الثانية ص ١٧٥) قصة ملققة عن مجموعة من الالوية من فئة معينة قامت بتحريك احداث في عام ١٩٨٣ وبالعودة الى المراجع اي كتاب باتريك سيل بالذات في ص ٦٩٠ نجد قصة مختلفة واشخاصاً مسؤولين ليسوا من هذه الفئة ومع اختلافنا مع كتاب باتريك سيل، الا انه يبقى اكثر رصانة، فهل يقبل السيد باتريك سيل ان يستخدم كتابه وينسب اليه ما لم يقله؟ اليس في هذا عدم احترام لعقيلة القارئ بل الاساءة الى مصداقية استخدامه لمراجعته؟

وياتي ردي هكذا مرة اخرى يختلق السيد شعبي اتهامات لا اساس لها ففي المقام الاول يصل عدد صفحات الطبعة الانكليزية الاولى لكتاب سيل الذي استشهد فيه الى ٥٥٢ صفحة فقط اما صفحة ٦٩٠ التي يشير اليها السيد شعبي فلا وجود لها على الاطلاق ثانياً، يضم كتاب سيل القصة التي سردتها بالحرف في الفصل ٢٤ «حرب الاخوين» ص ٤٢١-٤٤٠.

وبمراجعة الطبعة العربية الاولى التي قامت بنشرها مكتبة بيسان في ١٩٩٢ لم يدهشني ان اجد القصة ذاتها ص ٦٨٥-٦٩٥.

وجدير بالذكر ان السيد باتريك سيل، الذي اطلع على الطبعة الاولى باللغة العربية من كتابي، قد وصفه بأنه كتاب ممتاز موسع بشكل كبير ومواكب للاحداث الاخيرة. ويقول السيد شعبيبي ان نفاذ الطبعة الاولى من كتابي خلال شهور قليلة اوحى لي بأن كتابي ذو قيمة انا لم اقل شيئاً من هذا القبيل، الا انني لا اخفي سروري بما حظيت به الطبعة الاولى باللغة العربية من كتابي حول سوريا من اهتمام فما الذي يتمناه الكاتب سوى انتشار كتابه وكثرة توزيعه وقراءته هذه هي أفضل مكافأة لسنوات الجهد والعمل الدؤوب فقلما تحظى مثل هذه النوعية من الاعمال العلمية التفصيلية بمثل هذه القاعدة العريضة من القراء.

ويتساءل السيد شعبيبي اذا كنت ارى ان سياسة الاسد التي رسمت خطأ بين الحياة والموت وبين الحقوق والتفريط يمكن الا تكون سياسة اكثروية، وهنا وافقه تماماً على ان اهم القضايا التي يقف فيها معظم الشعب السوري مسانداً لموقف الرئيس حافظ الاسد هي عملية السلام السورية - الاسرائيلية.

انني بالقطع لا اقبل اتهامات السيد شعبيبي بأن كتابي «خبث» فهو يصف كتابي ايضاً بأنه خطير وهناك مخاطرة في الرد عليه، ويبدو ان السيد شعبيبي لا يدرك بأن موقفه من كتابي انما قد يشجع معارضيه على قراءة كتابي، وانا ارى انه كان من الافضل لو انه التزم بما قاله بداية بأن في سوريا.. لا نسمح لانفسنا بتناول الامور الطائفية لاننا لا نريدها ان تلعب اي دور على الاطلاق، فيبدو ان تجاهل القضايا الطائفية تماماً افضل بكثير من تناولها بغير صدق، مما يسمح باثارة مناقشات سلبية والتي ما كان لها ان تظهر في ظل مناقشات وحوارات صريحة وموضوعية حول الطائفية وغيرها من الولاعات، كما هو وارد بكتابي.

مستشرق هولندي وحالياً سفير هولندا في مصر يعبر عن وجهة نظر شخصية.